آداب الطريق

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

الأستاذ بدار المعلمات بالزمالك

(٢)

وهذا الحديث السابق يعتبر أصلا من أصول الطريق يبنى عليه الصوفية سلوكهم . وأوقاتهم مقسمة على ضوئه بين ذكر وفكر ومحاسبة . فالذكر مستمد من قوله تعالى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله اليوم الآخر وذكر الله كثيرا » « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » . والفكر مستمد من قوله تعالى « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ماخلقت هذا باطلا . سبحانك فقنا عذاب النار » . والمحاسبة من قوله عليه الصلاة والسلام « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، فوالذى نفس محمد بيده . ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » .

وعلى هذا فإن القوم يرون فى الأوقات فرصا يجب انتهازها ، ونعمة لا ينبغى تضييعها . بل يجب تعميرها بصالح الأعمال ، وشغلها بما يكون له أثر طيب فى الحال والمآل وليس أدل على ذلك من حرصهم على الورد ، واعتبارهم التفريط فيه خطأ خطير لا يغتفر . وكيف لا . والورد حق الله على العبد . ومفتاح وصوله إليه . ورحمته الدالة عليه . يقول ابن عطاء الله « وينبغى للمبتدئ أن يتخذ له وردين ، وردا بعد صلاة الصبح وآخر بعد صلاة المغرب ، وأما أهل التمكن والنهايات . فالذكر شغل قلوبهم فى جميع الأوقات » ويقول فى موضع آخر « لا يستحقر الورد إلا جهول » .

وقد اختلفت أفانين السادة الصوفيه فى الأوراد نظما ونثرا ، ولهم فيها مواجيد وأذواق خاصة ، وعبارات تشهد لهم بعلو الباع وبالنبوغ الأدبى والذوق الفنى . إلا أنها جميعاً تستقى من معين واحد ، وتنتمى إلى أصل واحد ، كما تنتهى إلى غاية واحدة.

ويشترط فى المريد أن يكون حسن الظن بالله . بمعنى أن يكون متفائلا بوصوله إلى الله غير يائس من ذلك ، وأساس ذلك يقينه بأن الله معه «وهو معكم أينما كنتم» قريب منه « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » مستجيب له « أدعونى أستجب لكم » .

وعلى قدر ظنه وحقيقته . تكون درجته لأن الله تعالى يقول « أنا عند ظن عبدى بى . فليظن بى ما يشاء » وليس حسن الظن مطلوبا فى أمر الآخرة دون الأولى . بل هو مطلوب فى كليهما . فهو فى أمر الدنيا يكون بثقته بتوفيق الله له ، وبأنه لا يصل إليه منه إلا النفع ، وبأن ما يصيبه من آلام ومتاعب فلمصلحته ، كتخليصه من الآثام أو رفع درجاته عند الله ، وفى أمر الآخرة يكون بيقينه فى قبول عبادته ، وإثابته عليها وبرجائه فى أن الله سيقبل توبته ، ويدخله جنته ، وقد قال تعالى يخاطب الكافرين الظانين بالله ظن السوء « ذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم » .

وقد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بحسن الظن بالله . فقال فى حديث رواه أبو هريرة رضى الله عنه « إن حسن الظن بالله من حسن عبادة الله » وجاء فى الخبر « لا يموتن أحدكم إلا بحسن الظن بالله » .

وحسن الظن يتبعه حسن العمل . وإلا أصبح أمنية كاذبة ، وأملا مخذولا ، نعى الله على أصحابه بقوله » ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور » « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل » وصدق عليهم قول ابن الفارض :

رضوا بالأمانى وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

ويعقد الصوفيه على التواضع أملا كبيرا فى وصول المريد إلى الله . . فالتواضع فى أصله رفعة . يقول النبى صلى الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه » ، والتواضع حلية العلماء والحكماء . حدث صلى عليه وسلم عن نفسه قائلا «التواضع حرفتى» وهو أشرف الخلق ، وتاج الأنبياء ، ورحمة العالمين ، وقائد ركب الهداة المخلصين . وكان من تواضعه يعود المريض ، ويشيع الجنائز ويركب الحمار ويجيب دعوة العبد ، وكان يوم قريظة والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف .

وللصوفية فهم خاص فى التواضع ، وذوق نتج عن تحققهم بهذه الصفة العظيمة ، ولهم فى تفسيرها رقائق مأثورة تشهد لهم بالسبق والتقدم . فهم يقولون « الخشوع

الانقياد للحق وترك الاعتراض على الحكم » ويقول صاحب الحكم « من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا ، إذ ليس التواضع إلا عن رفعة . فمتى أثبت لنفسك تواضعا فأنت المتكبر حقا » .

وعلى هذا فالتواضع محله القلب ، وليس يشترط فى صاحبه تنكيس القامة أو إذلال الهامة ، أو تقذير المنظر والهيئة . وقد سئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: « تخضع للحق وتنقاد له» . كما سئل الجنيد عن ذلك فأجاب : « خفض الجناح للخلق ، ولين الجانب لهم » .

والتواضع ينشأ كما قال السادة الصوفية عن شهود عظمة الحق وتجلى صفته . فإن هذا الشهود يطامن من كبرياء العبد ، ويذل من رغبة نفسه فى التسلط ، وكلما استشعر العبد عظمة الله هانت لديه نفسه ، واستحقر أمام قوة الله قوته ، واعترف بتمام عجزه . فحقق بذلك افتقاره إلى الله ، ولجوءه إليه ، واستنصاره به ، فيمده الله بنصره ، ويعينه بقوته ، ويؤيده برحمته ، ويرفعه من حيث وضع نفسه ، ويدله بإحسانه إليه ، ويشهده منزلته لديه . ويتحقق بذلك معنى قوله عليه الصلاة والسلام « من تواضع لله رفعه » ويتضح معنى قول ابن عطاء الله السابق «من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا » لأن من شهد لنفسه التواضع فقد نفى عنها صفة التحقق به ، وإذا انتفى التحقق انتفى الصدق الذى يعتبره الصوفية المدخل الأساسى للطريق .

وعلى المريد أن يضع قوله تعالى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » نصب عينية . بمعنى أن يكون متنبها لدسائس النفس ووساوس الشيطان . حتى لا يؤخذ على غرة . وقد أوصى الصوفيه تلاميذهم بمراعاة هذا الأصل باعتباره أمرا ضروريا . فليس أكبر عداوة للإنسان من نفسه وشيطانه ، والأباصيرى يقول فى ذلك .

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

وعداوة الشيطان للإنسان قديمة منذ فجر التاريخ ، وقد نذر ابليس نفسه الإيقاع بذرية آدم وعاهد نفسه على ذلك . والنفس بطبيعتها راغبة فى حفظ كيانها المادى . متجهة بكل قواها إلى الركون إلى الأرض ومشتقاتها . فهى تحاول أن تسد على الروح كل منفذ ، وتأخذ على العقل كل طريق ، بل تعمل جاهدة على أن تسخره لهواها وشهواتها . « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى » .

ولن ينجو الإنسان من هذين العدوين إلا باللجوء إلى الله ، والاستعانة به

ومراقبته . وهذا هو الذى يفهم من التذكر والإبصار المقصودين فى قوله تعالى « إن الذين تقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » فالتذكر رجوع إلى معرفته أصل العدواة التى يكنها إبليس للبشر ، واستثناس بوعد الله السابق لعباده المخلصين بحفظهم من غوايته وإضلاله . « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » . والإبصار استنصار بحول الله وقوته على كيد الشيطان ومكره وليس بعد هذا إلا تحقيق الوعد الذى قطعه الله على نفسه « ولينصرن الله من ينصره » .

ووسائس النفس خفية يصعب معرفتها على كثير من السالكين ، ولذلك سمى جهادها الجهاد الأكبر وكانت مخالفتها أساسا للنجاة من هذه الوسائس التى ربما يشكل أمرها فى كثير من الأحيان وخاصة حين تأمر ببعض الطاعات والعبادات التى يكون حظها منها السمعة والرياء ، وإيقاع الحظوة فى عيون الناس . وعلى السالك حينئذ أن يقوها بتحرى الإخلاص ، والبعد عن مواقع الرياء . فإذا نازعته فى أمرين محبوبين . فلينظر أيهما أثقل عليه فيهما فيتبعه . فإن فيه النجاة كل النجاة .

وإذن فمراقبة الله سبحانه وتعالى ، ومجاهدة النفس والشيطان من الآداب الهامة فى سلوك الطريق التى نبه الصوفية عليها وأخذوا أنفسهم بها وأوصوا بها تلاميذهم حتى يصلوا إلى غايتهم الكريمة ، ويحققوا آمالهم . ؟

للحديث بقية بتوفيق الله تعالى .

قاموس التصوف

(٥)

اللفظ	المعنى
١ — العيد	مايعود على القلب من التجليات بإعادة الأعمال .
٢ — النور	كل وارد إلهى يطرد الكون عن القلب .
٣ — الإلهية	كل اسم إلهى مضاف إلى البشر .
٤ — الأنانة	قولك أنا .
٥ — الهوية	الحقيقة فى عالم الغيب .
٦ — السكينة	ما تجده من الطمأنينة عند تنزل الغيب .
٧ — اليأس	هو مايعبر به عن حال القبض .
٨ — الترقى	هو التنقل فى الأحوال والمقامات والمعارف .
٩ — التلقى	أخذك مايرد من الحق عليك .
١٠ — التدانى	هو معراج المقربين إلى الحق .
١١ — التدلى	هو نزول المقربين حضرة الرب ويطلق أيضاً بإزاء نزول الحق إليهم عند التدانى .
١٢ — التولى	هو رجوعك إليك منه سبحانه .
١٣ — الرجاء	الطمع فى الأجل .
١٤ — الحرف	يقصد به اللغة ، وهو ما يخاطب الحق به من العبارات .
١٥ — الصعق	هو فناؤك عن نفسك عند التجلى الربانى عليك .

اللفظ	المعنى
١٦ — الرعونة	هى الوقوف مع الطبع والانصياع له .
١٧ — اللب	كل ماصين من العلوم عن القلوب المتعلقة بالكون ، واللب هو مادة النور الإلهى .
١٨ — الكون	هو كل أمر وجودى .
١٩ — الحق	ماوجب على العبد من جانب الله ، وما أوجبه الحق ، تعالى ، على نفسه .
٢٠ — العارف	من أشهده الرب عليه ، فظهرت الأحوال على نفسه .
٢١ — المعرفة	هى حال العارف .
٢٢ — الكمال	هو التنزيه المطلق الصفات وآثارها (بالنسبة لوجود الله جل وعز) .
٢٣ — الحد	الفصل بينك وبينه (سبحانه) .
٢٤ — البرزخ	هو ذلك العالم المشهود بين عالم المعانى وعالم الأجسام .
٢٥ — العبودة	أن يشاهد العبد نفسه فى مقام العبودة لربه .
٢٦ — سر السر	ما انفرد به الحق عن العبد .